المجرم القديم

تعليل آخر لجريمته

الفجيعة العظمى في الحياة هي النضال مع قوى لا يستطيع الانسان ان يسيطر عليها فيرى نفسه مع الحياة في جلاد عنيف هي تدفعه في مجاريه وهي هي التي تنزع منه ثمرات الفوز المبين . تثير في صدره نزعة شديدة الى الابداع والابتكار او ميلا قوياً الى السيادة والسلطان او توقاً غلاباً الى التسمو في ظل الحب فيقف قواه على تحقيق مطالبها العليا . وحين يتمر ان غصن النصر يكاد يلتوي بين يديه تديله من غضبها وجورها ضربة أو ضربة . فاما ان تظهر عجزه عن الابداع او تقوض صرح المجد الذي بنته له في موج من المنايا على اركان من الاسل او تقلب له نعيم الحب جحيما يتقلب فيه على نيران الغيرة اللاذعة او الشرف المسلوب . وفي المقال التالي وصف يليغ لفجيعة رجل من اعلام التاريخ ردنا الى الخلود عن طريق الابداع الفني فلما تبين له عجزه لجأ الى الحب فصدف عنه حبيبه فاراد ان ينتقم من الحياة وايناثها فجعل هيكل اقسس المشهور طعمة لنيران لا تبقى على عجائب الفن ولا تذر

من الأولیات التي نحفظها عن ظهر قلب منذ حداثتنا ان عجائب الدنيا القديمة سبع : (١) أهرام مصر . (٢) حدائق بابل المعلقة . (٣) تمثال جوبتر الأولمبي . (٤) منارة الاسكندرية . (٥) تمثال رودس . (٦) هيكل ارتميس في أفسس . (٧) مدفن الملك موزل

وإذا استثنينا أهرام مصر ، شعار هذا الوادي الخالد ، فان أيدي الحدثان قد عبثت في تلك العجائب القديمة فلم يبق من شهرتها الذائعة إلا الأحزية الدارسة . وقلما تفرغنا لبحث الاسباب الطبيعية أو الزمنية التي أودت بكل من هاتيك العجائب على أن لاحداها — هيكل افسس — شهرة مزدوجة بأن تاريخ دماره غير خاف عنا . ومفاده أن ذلك الهيكل المشاد لسيادة الاله ارتميس الموروفة بين ديانا بأجراقه مجنون يُدعى ايرستراتس ، شاء ان يكون كبعض الغزاة الفاتحين الذين يخلدون أسماءهم بما يهدمون من أثر عظيم . وقد جاء بفعلته الشنعاء سنة ٣٦٥ قبل الميلاد في نفس الليلة التي وُلد فيها اسكندر المكدوني . وكان من حمق أهل أفسس انهم أصدروا أمراً يحرم التلفظ باسمه أو الالماع إلى ذكره ، على أن يكون الاعدام جزاء

مخالفة هذا الامر . وكذلك استُعمل اسم ايرستراتس فيما بعد في جميع اللغات للدلالة على الحامل الاحمق الذي يأتي الأمر المنكر للحصول على شهرة ولو شائنة

***

بيد ان الشعراء أحياناً يرحمون . فتحركت الشفقةُ في قلب الشاعر الالماني ريتر وأنشأ حول هذه الحقبة التاريخية رواية تمثيلية كان ايرستراتس بطلها الاتعس المقهور في ذلك العهد ، أي حوالي منتصف القرن الرابع قبل المسيح ، كانت بلادُ الاغريق في اوج الخطر والعظمة . بل كانا هي بما انتهت اليه خلقتْ حاسّة العظمة نفسَها التي تحيشُ الآن في صدورنا كلّما ذُكرتْ إغريقيا وتاريخها المجيد . فاذا كان هذا مبلغ العظمة فيا بعد كرّ العصور ، فكيف به في نفوس الاغريق وهم « يجبون » عظمتهم ويخلقونها يوماً بعد يوم في ترنح الكبرياء وشهوة المنافسة والتفوّق ؟

يذكر التاريخ في هذا الباب ، ان القائد ستوكليس قضى ليلتهُ ساهراً معذّباً إذ بلغهُ انّ زميلهُ القائد الاثيني ملتيادس تغلّب على الفرس وعاد منهم بالغنائم والسلائب ، فقال كلمتهُ المأثورة : « إنّ النار التي تكلّل بها ملتيادس يقصي النوم عني ! » . وفي هذه الكلمة بعض الدلالة على ما كان في القوم من حبّ المنافسة والتفوّق بعضهم على بعض

كلّ مظهر عظيم من قدرة الشعب كان يخلّد في قصيدة رائعة ويسجّل في تحفة فنيّة ممتازة . وبهذه الوسيلة تعلّم الرجالُ كيف ينقلبون أبطالاً ، وشاء الابطال أن يصيروا آلهة . وبلاد فوق جبال موقعها بحذاء شاطئها ، تضيء بنور أسمى من نور شمسها وأنقى . ألا وهو نور الحياة الجديدة والجمال الفتان الذي خُلق خلقاً جديداً على يد الاغريق . وأينما بين الاقطار الاغريقية مركزُ المجد وقبّةُ الخلود ، لأنها هي التي جاءت بالعبقرية ، والبرلمان ، والديمقراطية ، والحكمة ، وعلى كرسيها الديمقراطي يحكم رجل سعيد مجيد ، هو بريكليس

ومن ضفة البحر المقابلة ينهض في أتعس رجلٌ آخر ، هو ايرستراتس ، ليمثل الشقاء حيال السعادة ، والخيبة ازاء الانتصار

***

بدلاً من ان يرى الشاعرُ الالماني في ذلك المجرم مجنوناً أحرق ، شاء ان يخلق منهُ

المظهر الآخر من العظمة المخذولة ، فيأتي بشخص تاريخي خالد في مذلته وانحطاطه يقدم لكل منا ولو لمحة سريعة من شخصيته في احوال خاصة . إذ من ذا الذي لم يذق مرارة الحية وعقم الجهود ، ولو مرة واحدة في حياته ؟ قرأ الشاعر في ذلك الشقاء السحيق فاخرج منه لباب الحياة . وما مقدرة الفنان إلا في كونه يرى من جوانب النفس وسرائر الضمير ما لا يلمحه الآخرون ، فيصد إلى وسائله الخاصة ليرينا تلك الخفايا بعينه ويحملنا على اكتناهها بادراكه واستعداده . فينال منا موافقة سريعة مقرونة بشيء من الدهشة . ولئن سهل ذلك في الحوادث القديمة اكثر منه في الحوادث الجديدة الشائعة ، فذلك لا ينفي ان الفن واحد وسحره متشابه في القديم والجديد على السواء

فايرستراتس في هذه الرواية ذو مزاج فني قوي صادق في شذوذه وتلهفه وتوجعه ، حري بالاهتمام والرحمة لانه جبار بانفعاله وطمعه ، قزم بعمله وانتاجه . يطمع في نحت التماثيل الرائعة وإبداع آيات الجمال . فلا يفلح في ان يكون اكثر من عامل ضئيل يصنع النصب السخيفة المعنى والتماثيل الصغيرة للاوثان والمعبودات . فكيف يحتمل هذه الضعة وهذا العجز ، وهو عائش في ظل هيكل أرتميس العظيم ؟

شاد بايونيوس تلك المعجزة المرمرية تجاه البحر في مدينة أفسس فكان ذلك الهيكل موضع الاعجاب والحسد من العالم الاغريقي و« البربري » جميعاً . فالاعاجم كالاثينيين والاسبارطيين يقصدون اليه ، ووفود الحجاج تهافت عليه من كل صوب للعبادة الدينية والحاسة الفنية معاً . أما هو ، ايرستراتس ، فيزداد شعوراً بتفاهته وتحطمه إذ يجلس في ظل تلك الجدران المحدقة عن حدود العبقرية ، يتعثر في الاقاريز الشاهقة متذكراً بان الفنان القديم وضع من هذه الرؤيا الفخمة الحجر الاخير في صرح مجده

حول الهيكل تنبض الحياة الفنية المتنوعة . هو ذا اليوم المعين لتكريم ارتميس . فالشعب يهتف رافعاً التوسلات وفروض العبادة إلى الالهة . والسفن تفرغ في المرفأ المحصن هناك وفود العابدين والقادمين من سراقسطه . والمراكب المؤلفة من الكهان ورؤوس الاغريق والشبان والشابات تخرج من الهيكل في جزائر مزدانة . وكأنها يمثل العالم الاغريقي بدينه الجزل السعيد وعبادته للجمال المحسوس . وفي الملرح

العام ، ايرستراتس وحده شقيٌّ مفجوع . وإذا بوالدته الكفيفة التي يحبُّها تخرج من منزلها الحقير وتأتي اليه لتؤاسيه وتطيب خاطره . فيجيبها في حرقة وانتحاب :

— « لقد قدتني صغيراً إلى هنا أمام الهيكل وقلت لي باكية : « ألا فليتمسّكك يا بني ، حبُّ الشهرة الطائرة لتكون خليقاً بأبيك الذي هرق دمهُ في سبيل المجد والعظمة ! ألا فلتقدك شهوة الشهرة الدائمة ، يا بنيَّ ! » . إذ ذاك طويتُ ركبتيَّ أمام مذبح أرتميس ، وهمستُ شفتاي العضّتان بصلاة حارَّة فقلتُ : أنيلني الشهرة ، ايتها الالهة العظيمة ! »

عادت والدتهُ إلى المنزل الحقير متعثّرة في حزنها وخيبتها . فخرج عليه حين ذاك ايجيزيا تاجر تماثيل ارتميس يشهرهُ ويدعوهُ إلى العمل الذليل المملول . فلم يسمعهُ ايرستراتس . ولا هو سمع صوت الفتاة الايونية التي تهواهُ ، كليميا سليلة بيونيوس الجليلة ، مع انهُ كان يبادلها الحبَّ . غير انَّ شهوة المجد الجائعة في نفسهِ جعلتهُ قاسياً شرساً ، واوصدت قلبهُ دون كلّ عاطفة رقيقة حلوة . في حين كليميا لا تعرفُ من الحياة إلاَّ الحب ومسالكهُ ، وحاجتها الى المرح والهناء لا تدرك معنى الغم والجهاد . فهي الشباب كل الشباب الذي يتوقُ الى التمتُّع بعيده العابر السريع الزوال . فتخاطبهُ قائلة :

— « سماعاً يا ايرستراتس ! إنما نحن آثمون إذا استسلمنا للكدر والاسف في هذا النور الصافي . هيَّا نغتنم اللذات في هذا النسيم العليل وهذه الضحوة الفاترة ! ولا نطمعنَّ حتى ولا بإبدال حظنا بحظ باني الهيكل نفسهِ : لانهُ هو قضى ومضى ، أما نحن فمن ابناء الحياة ! »

— « كلاَّ ، كلاَّ ، يجيب ايرستراتس ، نحنُ من ابناء الحياة ولا نحن باحياء لاننا لم نتفوَّق على احد . الحياة فوز وانتصار ، إلاَّ فوت امرؤ من الموت . أبناء الحياة هم فيدياس النحات المثّال وهميروس الشاعر وسائر افذاذ العبقرية . اولئك يظلون احياء يرتعون في شباب إلهي وجمال لا يذبل حتى يوم تدرس آثارهم وتذرُّ الرياحُ الاربع ترابهم . اما نحن فكأننا لم نولد ويا ليتنا ما ولدنا ! »

ايرستراتس الشقي يدرك شأن الرسالة من العظماء الى بني الانسان ، يدرك شأنها الخطير في حياتهم ولاسيما بعد مماتهم . الذين نظموا في حياتهم عالماً كلياً جميلاً ، يحققونهُ بفنونهم واعمالهم — فالاسفة كانوا ، أم ساسة ، أم قوادٌ ، أم فنانين أم شعراء ،

فصارت الصور التي اوجدوها في عالم المحسوس جزءاً نفيساً من الثروة العامة. بل لولا ما جاء به إبداعهم لمرّت الاجيال والاحقاب والدنيا اقل غنىً ورفعةً رجالاً ، ودولت الشعوب وليس بينها وبين الانعام كبير فرق . تلك هي الرسالة التي تطمح العظماء بطابع المجد ويظهر ان كنه الغاية مما تكنّهُ الازمنة وتبديه الامكنة ان يكون غذاء لمجدهم ووسيلة لتشبّع عبقريتهم ... وهذه فجيعة ايرستراتس : لانهُ مع ادراكه ذلك لا يستطيع ان يكون « عظيماً » ، عقلهُ وخيلتهُ وعواطفهُ تنضب بعناصر الابداع فلا تأتي يدهُ بغير الفنّ المشوّه الزري ...

***

ولكن ها هي ذي فرصةٌ سانحة ! إذ ان مدينة أفسس عزمت على استبدال تمثال ارتميس الخشبيّ المحطم بآخر من المرمر تزين به صرح الهيكل ، وعهدت بهذه المهمة إلى ايرستراتس صانع التماثيل الوضيعة . وانما اختارتهُ لذلك لانهُ من أبناء أفسس ولانهُ ألف صنع تماثيل الآلهة

رعدة الفنّ والابتكار تنتاب ايرستراتس : مباركةٌ أنتِ يا أرتميس ، فقد أُتيحت إلى توسّل الطفل الذي عاش عند اعتابك ! وقد آن الاوان ليعرفهُ الناس خلاقاً !

فاحتبس في مخدعه مالئاً في تجريد نفسه من المشرات ، معرضاً عن كليسيا وعن أحاديث الغرام ، ساهراً ليلةً بعد ليلة في التخيُّل والقياس والجهاد والبناء . يحاول ويجرّب وينحت ويبني ويهدم ، ثم يبني من جديد ولكنهُ لا يجني غير الفشل . في خاطره تتجسّم الصور وتتمثل الفكرة ولكن هيهات لليد ان تطيع الفن المبدع ...

[illegible]

[illegible]

في جنبه هيجة من تقريد [illegible]

وشتان بين ابرستراتس وهذا الذي جاء ينافسهُ! فبركسيتيلس يحب الحياة السائغة خالصة من الغمّ والكد، وما الحياة عندهُ سوى التمتّع باللحظة العابرة، وإذا عمل فشأن من يلهو ويلعبُ ولا يبتغي شيئاً من مهزلة المجد والخلود. بخلقه ذاك جاز الهوّة القائمة بين ابرستراتس وحبيبته فتلاقى الاثنيُّ وكليسيا على معنى الحياة وتهافا على لذاذة الحبّ. ذلك النفس القاصر ينقلبُ عدوًّا للحياة بسبب الفنّ الذي يعصاهُ، وهذا السيد الظافر يخلقُ الالاهات من مشهد الفتيات وما الالاهات عندهُ إلاّ هنّ، وفي ملامحهنّ الساحرة تمتزجُ الالوهية بالانسانية ويتوحّد الفن والحياة...

***

الجمالُ هو الجسر الواصلُ بين الارض والسماء. فني أثينا نحت بركسيتيلس تمثال افروديت الاهة الجمال فما كان ناسخاً إلاّ جمال غادة أثينية. وهنا في افسس سيستوحي جمال اوتيس من جمال بناتها

لمح بركسيتيلس الفتاة كليسيا أمام الهيكل، بينا غادات أفسس ينشدن حولهُ، فلمعت عيناهُ ببريق الالهام. أليست هذه أوتيس بعينها تُعلن نفسها لفنانها؟ وهذا الشباب الباهر الزائل، وتلك اللحظات الزاخرة بنعم الحب التي جحدها ابرستراتس، سيجني منها بركسيتيلس خير ما يُجنى ويخلدها في المرمر الامين. فكيف لا تميل كليسيا إلى الاثنيّ وتهواهُ، هي التي ذاقت مرارة الهجران والهوان؟ وفي الوقت نفسه كيف لا تركو الفجيعة في نفس ابرستراتس المقهور رجلاً وفنّاناً جبّاراً؟

[illegible]

[illegible] كليسيا وتجلت بعد ان زين جيدها والبسها بقلادة. سمرتها في حفلة المتفرجين. ومضى ابرستراتس ضحية الارق والجهد العقيم، يندبُ الحبّ الذي لم ينعم به والمجد الفارّ منهُ، ويمزقهُ شيطان الحسد والكراهة لهذا الغريب الذي سلبهُ كل شيء إلاهياً جزلاً. وحيال التمثال الرائع شعر بانهيار احلامه واطماعه وآماله. فتحت بضآلة شخصيته العاجزة. فحمل ازميل اليوناني الملقى بقرب التمثال وانقلب راجماً الى بيته وفي نفسٍ واحد حطم التماثيل المشوّهة وقطع الرخام العصية التي حرّمت فنّهُ وحظّهُ ولهفتهُ...

وإذ غادر منزله وقعت عيناهُ على كليسيا تبكي حبيبها الذي فرغ من عمله المجيد

هنا فأثينا تناديه لمجدٍ جديد ، والاثينيات الفاتنات يدعونهُ لغرام جديد . فيقول لها ايرستراتس :

— « بهذا الازميل حطمت تماثيلي ، فخيبتي مطبقة ولنافسي جميع أكاليل الظفر. فعودي أنتِ إليَّ ياكليسيا ، يامتعة اللحظةِ العابرة ! أنيليني اليد البهيج السريع الذي لم اعبأ به قبل اليوم ! أتقيمين على عهد من يعطي دون اسف ولا التفات ، ولن يذكرك مرة بعد الفراق ؟ »

— « إني احبهُ ، تحيب كليسيا ، وسأبقى في حي امينة »

فيهتف ايرستراتس : « ايها العالم الجميل ، أتكون بحذافيرك مخلوقاً لتعزية ذلك الرجل ؟ ألا تيلني حتى ولا الفتات المتساقط من مائدته ؟ ولا الزهرة الذابلة المتناثرة من اكليله ؟ أبهذا الظلم إذن توزع الآلهةُ عطاياها ، وأنا الأحق الابلد أتقُ برحمتها وعدلها ؟ »

***

أطبق اليأسُ على الرجل وعمَّت الفجيعةُ ولا مجال بعدُ في قلبهِ للتلهُّف والاسى. وإذ يخيم الظلام يرتفعُ من احشاء الليل ضرام ودخان يلتهم الهيكل العظيم ، وامامهُ ايرستراتس مشوَّش الشعر ، زائغ البصر ، يحمل جذوة متقدة وهو يصيح صيحة المجنون في نشوة القنوط . انهُ قاصرٌ دون ايّ شيء ولكنهُ قضى على كل شيء . فلا هيكل بعد اليوم ولا تماثيل ، ولا أعمدة فخمة ولا آثار هناك خالدة !

أيسجن ويحكم عليهِ بالموت ويحذف اسمهُ من سجلّ ابناء البشر ؟ أجل ! على ان الموت خيرٌ من الحياة التي خلتهُ ، ولئن قضت الاقدارُ عليهِ فلقد قضى هو على سواهُ . فالفتاةُ التي علقت بهوى غيره ، والبحرُ الذي لم يطع بطابعهِ لن تقوم لهُ بعد اليوم قائمة ، وباطلاً كان مجيء بركسيتيس وباطلاً كان عملهُ وحيهُ ووحيهُ !

كذلك هدم روح الشر والحسد والعجز والكراهة معجزة العالم القديم . ولكن يشفع بايرستراتس ، في نظر الشاعر الالماني ، عذابهُ ويأسهُ واستشهاده الطويل . فهو مظهر آخر ومظهر صامد سيبقى فوق الانسانية المتفجعة وعبقريتها المجاهدة المتنحرة . . .

« مي »